الباب الرابع

ما سوى الحق خيال

ثم إذا تقرر انفراد الحق بالوجود ، فلا تتعدّ همتك إلى غيره ، إذ هو مفقود ، وإلى ذلك أشار بقوله ، فى أول الباب الرابع . وقال رضى الله عنه :

[لا تتعد نيَّة همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال] .

قلت : لا تتعد ، أى لا تتجاوز ، ونية الهمة : قصدها الذى تتوجه به ، والهمة : القوة المنبعثة فى طلب المقاصد ، والآمال : قصود القاصدين ، ومعنى لا تتخطاه أى لا تتجاوز إلى غيره .

قلت : إذا تعلقت همتك أيها المريد بشىء تريد تحصيله فردها إلى الله ولا تتعلق بشىء سواه ، لأنه سبحانه كريم على الدوام ، ونعمه سحاء على مر الليالى والأيام ، والكريم لا تتخطاه الآمال ، وهو يحب أن يسأل فيجيب السؤال . وقد قالوا فى تفسير اسمه تعالى الكريم : هو الذى إذا سئل أعطى ، ولا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى ، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى ، وإذا جفا عفى ، وإذا عاتب ما استقصى ، فهذا من كمال كرمه ، وتمام إحسانه وإنعامه ، وفى ذلك يقول سيدى إبراهيم التازى فى قصيدة له :

كَمالُ اللهِ أَكْمَلُ كُلِّ حُسْنٍ ... فَلله الْكَمَـالُ وَلَا مُمَـارِى
وَحُبُّ اللهِ أَشْرَفُ كُلِّ أُنْسٍ ... فَـلَا تَنْسَ التَّخَلُّقَ بِالْـوَقَارِ
وَذِكْرُ اللهِ مَرْهَمُ كُلِّ جُرْحٍ ... وَأَنْفَـعُ مِنْ زُلَالٍ لِـلْأُوارِ
وَلَا مَوْجُودَ إِلَّا اللهُ حَقًّـا ... فَدَعْ عَنْكَ التَّعَلُّقَ بِـالْفِشَارِ

وإذا علمت كرمه وجوده وكماله وإحسانه فلا ترفع إلى غيره ما هو مورده عليك كما قال :

[لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك] .

قلت : قد علمت أن ما سوى الحق خيال وهمى لا حقيقة لوجوده ، فإذا أنزل الله بك حاجة كفاقة أو شدة أو غير ذلك من العوارض فأنزلها بالله ، واجعلها تحت مشيئة الله ، وغب عنها فى ذكر الله ، ولا تلتفت إلى ما سواه تعلقًا وتملقًا ؛ ففى الحديث : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يغْضَبْ عَلَيْهِ » .

وقال أبو على الدقاق : من علامةَ المعرفة ألا تسأل حوائجك كلها إلا من الله قلَّت أو جلت ، مثل موسى عليه السلام اشتاق إلى رؤيته فقال :

(رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)[1] .

واحتاج يومًا إلى رغيف فقال :

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فقِيرٌ)[2] ا هـ .

ثم تعجب ممن رفع أحكام الحق إلى غيره مع عجزه وضعفه فقال :

[فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعًا] .

قلت : من قلة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره ، مع علمه تعالى بإحسانه وبره وعدم انفكاك لطفه عن قدره . قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أيست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى .

وقال بعض العارفين من المكاشفين رضى الله عنهم : قيل لى فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم : لا تبدين فاقة فأضاعفها عليك ، مكافأة لسوء أدبك وخروجك إلى حد عبوديتك ، إنما ابتليتك بالفاقة لتفرغ إلىّ منها ، وتتضرع بها لدىّ ، وتتوكل فيها علىّ ، سبكتك بالفاقة لتصير بها ذهبًا خالصًا ، فلا تزيغن بعدك السبك ، وسَمْتك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى ، فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى ، وإن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى ، وحسمت أسبابك من

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .

(٢) القصص : ٢٤ .

أسبابى طردًا لك عن بابى ، فمن وكلته إلىّ مَلَك ، ومن وكلته إليه هلك اهـ .

ثم بين وجه التعجب فقال :

[من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا ؟] .

قلت : من عجز عن إصلاح نفسه فكيف يقدر أن يصلح غيره ؟ ضعف الطالب والمطلوب . قال بعضهم : من اعتمد على غير الله فهو فى غرور ، لأن الغرور ما لايدوم ، ولا يدوم شيء سواه ، وهو الدائم القديم الذى لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد إلا على من يدوم لك منه العطاء والفضل اهـ . ثم إن الاعتماد على الله ورفع الحوائج إليه والرجوع فى كل النوازل إليه سببه حسن الظن به كما أشار إليه بقوله :

[إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه فحسن ظنك به لأجل معاملته معك ، فهل عوّدك إلا حسنًا وهل أسدى إليك إلا مننًا ؟] .

قلت : الناس فى حسن الظن بالله على قسمين : خواص وعوام . أما الخواص فحسن ظنهم بالله تعالى ناشئ عن شهود جماله ورؤية كماله ، فحسن ظنهم بالله لا ينقطع سواء واجههم بجماله أو بجلاله ، لأن اتصافه تعالى بالرحمة والرأفة والكرم والجود لا ينقطع ، فإذا تجلى لهم بجلاله أو قهريته علموا ما فى طى ذلك من تمام نعمته وشمول رحمته ، فغلب عليهم شهود الرحمة والجمال ، فدام حسن ظنهم على كل حال .

وأما العوام فحسن ظنهم بالله ناشئ عن شهود إحسانه وحسن معاملته وامتنانه ، فإذا نزلت بهم قهرية أو شدة نظروا إلى سالف إحسانه وحسن ما أسدى إليهم من حسن لطفه وامتنانه ، فقاسوا ما يأتى على ما مضى ، فتلقوا ما يَرِدُ عليهم بالقبول والرضا ، وقد يضعف هذا الظن بضعف النظر والتفكر ويقْوَى بقوتهما ، بخلاف الأول فإنه ناشئ عن شهود الوصف والوصف لا يتخلف . والثانى ناشئ ، عن شهود الفعل وهو يتخلف فإن لم تقدر أيها المريد أن تحسن ظنك بالله لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التى لا تتخلف فحسن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه ، فهل عودك الحق تعالى إلا برًّا حسنًا ولطفًا

جميلا ؟ وهل أسدى إليك : أى أوصل إليك إلا مننًا كبيرة ونعمًا غزيرة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يُغَذِّيكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ » .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنا لا نحب إلا الله ، فقال رجل أبى ذلك جدك يا سيدى بقوله :

« جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا » .

فقال الشيخ أبوالحسن : إنا لما لم نر محسنًا غير الله لم نحب سواه اهـ.

وقال أيضًا رضى الله عنه : قرأت ليلة :

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) إلى أن بلغت فيها (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ) .

فقيل لى : شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ، يذكرك أفعالك السيئة وينسيك أفعالك الحسنة ، ويُكثر عندك ذات الشمال : ويقلل عندك ذات اليمين ، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ، وكرمه إلى سوء الظن بالله ورسوله . فاحذروا هذا الباب فقد أُخِذَ منه خلق كثير من العباد والزهاد وأهل الطاعة والسداد ا هـ .

وقال رضى الله عنه أيضًا : العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه ، وعرف إساءته فى إحسان الله إليه .

(فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1] اهـ .

وإذا كان الحق تعالى ما عودك إلا الإحسان ، وما أسدى إليك إلا الامتنان فمن العجب أن تتركه وتطلب ما سواه ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ، ويطلب ما لا بقاء له معه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور] .

---

(١) الأعراف : ٦٩ .

قلت : ما لا انفكاك منه هو الحق تعالى وقضاؤه وقدره ، وما لا بقاء له هو الدنيا أو ما تدبره النفس وتقدره ، فمن أعجب العجائب أن يفر العبد من مولاه ، ويتوجه بالطلب لما سواه ، مع أنه لا انفكاك له منه ، ولا محيد له عنه ، إذ لا وجود له إلا منه ، ولا قيام له إلا به ، فكيف يهرب منه بترك طلب معرفته ، وبالتقرب به بامتثال أمره واجتناب نهيه ، ويطلب ما لابقاء له من حظوظ الدنيا الفانية التى إن لم تزل عنها فى الحياة زالت عنك بالممات ، فاطلب ما يبقى دون ما يفنى ، ولله در القائل :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِارْتِحَالِ

أو تقول : من العجب كل العجب أن يهرب العبد مما لا انفكاك له عن قدر الله وقضائه ، ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ تدبيره واختياره ، إذ كل ما تدبره وتبرمه فسخه القضاء وهدمه :

مَتى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

وهذا كله من عدم فتح البصيرة أو عماها ، ولذلك قال تعالى : (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ) عن إدراك الحس ، لأنها أدركته وحجبت به (ولكِن تعمى القُلوبُ) عن إدراك المعنى ، فلا ترى إلا الحس ولا تحب إلا إياه ، ولا تطلب شيئًا سواه ؛ نسأل الله عافيته وهداه .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : عمى البصيرة فى ثلاث : إرسال الجوارح فى معاصى الله ، والطمع فى خلق الله ، والتصنع بطاعة الله اهـ . ثم إذا طلبت الحق الذى لا انفكاك لك عنه ورحلت إليه ، فاطلب معرفة ذاته لا زخارف جناته ، إذ هى كون من مكوناته ، ولذلك قال :

[لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير ، والذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل عنه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوِّن وأنَّ إلى ربِّك المُنتهى] .

الهجرة إلى الله

قلت : الرحيل من الكون إلى الكون هو الرحيل من السِّوى إلى طلب السِّوى ، وذلك كمن زهد فى الدنيا وانقطع إلى الله ، يطلب بذلك راحة بدنه وإقبال الدنيا عليه ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللهِ كَفَاهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ولقوله أيضًا : « مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ صَاغِرَةٌ » .

وكمن زهد فيها يطلب الخصوصية كإقبال الخلق والعز وتربية المهابة فى قلوب الناس ، أو زهد فيها يطلب الكرامة وخوارق العادات ، أو زهد فيها يطلب القصور والحور ، فهذا كله رحيل من كون إلى كون ، فمثله كحمار الطاحونة يسير الليل والنهار وهو فى موضعه ، فالذى ارتحل منه هو الذى ارتحل إليه ، فمن كانت همته الحظوظ النفسانية ، فحاله حال حمار الساقية فى السير دائم ، وهو فى موضعه قائم يظن أنه قطع مسافة مما طلب ، وما زاد إلا نقصًا مع تعب .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : قف بباب واحد لا لتفتّح لك الأبواب ، تفتحْ لك الأبواب ، واخضع لسيد واحد لا لتخضع لك الرقاب تنخضعْ لك الرقاب قال تعالى:(وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)[1] اهـ.

فيبنغى لك أيها المريد أن ترفع همتك إلى الملك المجيد ، فترحل من رؤية الأكوان إلى طلب شهود الملك الديان ، أو ترحل من الدليل والبرهان إلى رتبة الشهود والعيان ، وهو غاية القصد وبلوغ المنتهى (وأنّ إلى ربك المنتهى) ولا ترحل من كون إلى كون ، بأن تترك حظًّا من حظوظ نفسك طلبًا لحظ آخر فتكون كحمار الرحى الذى سار منه هو الذى عاد إليه ، وتشبيهه بالحمار دليل على بلادته وقلة فهمه ، إذ لو فهم عن الله لرحل عن حظوظ نفسه وهواه ،

---

(١) الحجر : ٢١ .

قاصدًا الوصول إلى حضرة مولاه ، فلا ترحل أيها المريد من كون مخلوق إلى كون مخلوق مثلك ، ولكن ارحل من الكون إلى المكوِّن (وأن إلى ربك المنتهى) . والرحيل إلى المكوِّن يكون بثلاثة أمور :

الأول : قصر همتك عليه دون ما سواه حتى يطَّلع على قلبك فلا يجده محبًّا لسواه .

الثانى : الرجعى إليه بإقامة الحقوق والفرار من الحظوظ .

الثالث : دوام اللجأ إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والاستسلام لما يورده عليك .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أربعة من كن فيه احتاج الخلق إليه وهو غنى عن كل شىء : المحبة لله ، والغنى بالله ، والصدق ، واليقين . الصدق فى العبودية ، واليقين فى أحكام الربوبية .

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[1] ا هـ .

قاله الشيخ زروق رضى الله عنه : ثم استدل على طلب رفع الهمة إلى الله مع الإعراض عما سواه بحديث الهجرة الذى فى الصحيح فقال :

[**وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام : فهجرته إلى ما هاجر إليه ، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم ، والسلام**] .

قلت : الهجرة هى الانتقال من وطن إلى وطن آخر بحيث يهجر الوطن الذى خرج منه ، ويسكن الوطن الذى انتقل إليه ، وهى هنا من ثلاثة أمور : من وطن المعصية إلى وطن الطاعة ، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة ، ومن وطن عالم الأشباح إلى وطن عالم الأرواح .

أو تقول : من وطن الملك إلى وطن الملكوت ، أو من وطن الحس إلى وطن المعنى أو من وطن علم اليقين إلى وطن عين اليقين أو حق اليقين ، فمن هاجر

---

(١) المائدة : ٥٠ .

من هذه المواطن قاصدًا بهجرته الوصول إلى رضا الله عنه وسوله ، أو الوصول إلى معرفة الله ورسوله فهجرته موصلة إلى الله ورسوله على حسب قصده وهمته ، ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه فقد خاب قصده ومسعاه ، وغاية هجرته ما هاجر إليه ، وكانت هجرته زيادة فى جر الوبال إليه . فافهم أيها السامع قوله عليه الصلاة والسلام : « فهجرته إلى ما هاجر إليه » وتدبر واعرضه على قلبك ونفسك ، وانظر هل فيك بقية من الالتفات إلى ما هاجرت منه ، أو فيك حظ سوى ما هاجرت إليه من رضوان الله ورسوله أو معرفة الله ورسوله فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه ، ولن يوصل إليه من بقى فيه بقية من حظه ، وهواه قال الششترى :

إِنْ تُـرِدْ وَصْلَنَـا فَمَـوْتـكَ شَـرْطٌ
لَا يَنَـالُ الْوِصَـالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَه

وقال أيضًا :

لَـيْسَ يُـدْرِك وِصَـالِي كُـلُّ مَنْ فيـهِ بُـقْيَـا

وسمعت شيخنا اليزيدىّ رضى الله عنه يقول : إن أردتم أن تعرفوا هل رحلت أنفسكم من هذا العالم إلى عالم الملكوت أو لم ترحل فاعرضوا عليها الأمور التى كانت تشتهيها وتميل إليها واحدًا بعد واحد ، فإن وجدتموها رحلت عنها وخرجت محبتها من قلبها ، ولم تركن إلى واحد منها فاستبشروا ، فقد رحلت أرواحكم إلى عالم الملكوت ، وإن وجدتموها ركنت أو مالت بالمحبة إلى شىء من هذا العالم فجاهدوها وأخرجوها عنه بالكلية حتى ترحل إلى ربها ا هـ بالمعنى .

وختم هذا الباب بالسلام لما اشتملت عليه من الرحيل والمقام ، فكلها تدل على سفر القلب من شهود الخلق إلى شهود الخالق ، فناسب ختمها بالسلام لما فيه من ذكر السلامة .